

عبد العزيز المقالح

الخروج من

دوائر السّاعة السّليمانيّة

ارشيف / فايز محيي الدين

فاتحة

يتملّكني حزنُ كلِّ اليمّانينَ
يفضّحني دمعُهم..
جرّحهم كلّماتي
وصوتي استغاثاتهم.
يتسوّّل في الطُّرقاتِ الصّدى
كلّما قلتُ: إنّ هواهم سيقتلني
ركضتْ نخلةُ الجوعِ في ليلٍ منفايَ
فانتفضَ العمرُ
وارتعشتْ في الضلوعِ دفوفُ الحنينِ.

الخروج من دوائر السّاعة السّليمانيّة

- ١ -

من شجرِ القاتِ
ومن قواميس اللُّغات الميّتة
أخرجُ شاهراً حربي، ممتطياً صوتي أسيرُ،
في يميني وردةُ الميلادِ
في يساري نخلةُ الميعادِ،
في دمي بشارةُ القيامةِ.

- ٢ -

تقرأني أصابعُ الموتى
تنتفضُ الغابةُ في شرايينِ الترابِ

تلفظُ القبورُ أهلها
تصحو حجارةُ المدينةِ النَّعْسَى
وتستفيقُ جدرانُ البحارِ الظَّامئةَ.

- ٣ -

تضحكُ أسناني
تضحكُ نارُ الحزنِ..
أَمْضِعُ الأحجارَ والأشجارَ
باحثاً في الماءِ عن وجهي
عن وجهِ نهرِ الرِّيحِ
عن حروفِ القاتِ
عن سُجَّيرَاتِ الخيالِ،
أَيْنَ تَخْتْفِي خيلي؟

- ٤ -

عتيقةٌ كآبتي
تحوُمُ حولَ جَنَّةِ الماضي
ترسمُ وجهَ اليومِ
تمتطي جرحَ غدي

على شراعِ القاتِ
في وجوهِ المغربِ البليدةِ
الصمتُ صارَ لغتي
والساعةُ السُّليمانيةُ امتدَّتْ عروقُها
صارتُ شاباً كالشُّيوخِ
يمضغونَ حضرةَ الأيامِ
يشربونَ ماءَ العمرِ..
أينَ ضوءُ الحلمِ
والبراءةُ؟

- ٥ -

منْ يرتدي حزني
منْ يكتبُ الأصواتَ في نهارِ الصمتِ
في ليلِ الدُّخانِ؟!
منْ يميئُ الاخضرارَ في الوجوهِ
في الشِّفاهِ
في الأجفانِ؟

تذبجني سيوفُ الصمتِ
تسقطُ الدَّماءُ في ظِلِّي
أخرجُ شاهراً حربي
ممتطياً صوتي،
أرفعُ حزنَ الأرضِ عنْ صدري
أصيحُ في موجِ الجموعِ:
انطلقني
تألّمي
تكلمّي..
تذبجني سيوفُ الصمتِ في الشّفاهِ
الصّامتة.

قطرات من دم الجبل

كلُّ عصرٍ يجيءُ
وفي كَفِّهِ قطراتٌ من الدَّمِ
في ثوبِهِ وردةٌ تتوهَّجُ
تحفظُ للشمسِ أشواقَهَا للنهارِ
وتمنحُ أَلوانَهَا للُّحُومِ الشَّتَائِيَّةِ الضَّوءِ
تغسلُ معطفَ أحزانِها
تناسلُ في عِتماتٍ من الزَّمنِ الطَّبَقِيِّ
شظايا..

وتغسلُ أزماننا.
قطراتٌ من الدَّمِ تخلقُ عَصراً
وتهدمُ عَصراً
وتطرُحُ أسئلةً

تتشرّد عبر القرى

تنذرُ الخائفين..

تجوسُ خلالَ الحواري العتيقةِ

- أوردّة الفقراءِ النّبیینَ -

في الشارعِ العامِ تركضُ

باحثةً عن شهيدٍ.

* * *

قطراتُ من الدّم

كانَ يحاصرها ليلُ تاريخنا،

وهي تطوي القرونَ

بخیلٍ من الرّیح

تفتحُ بوّابةً

وتسابقُ موتاً

وتمتصُّ نوحَ النوافذِ

والشّهقاتِ التي غيّبتها الزنازَنُ.

تطلّبُ في ساحةِ الضوءِ

فوقَ التلالِ البعيدةِ

وجهاً،

وتنقشُ قبراً
وترسمُ عشبَ البكاءِ.

* * *

منُ تكونين؟
يا قطراتٍ منَ الدَّمِ
تصنعُ هذا الطريقَ
المؤدِّي لمقبرةِ الموتِ،
هذا الطريقَ
المؤدِّي لنهرِ الرِّغاريِدِ؟
ألمُحْ في ظلِّ عينيكِ صوتَ حبيبٍ لنا
وأشاهدُ نارَ عصورٍ منَ القلقِ المتوهِّجِ..
أشهدُهُ يُنْبِتُ الجبلَ البِكرَ ضوءَ أصابعِهِ.
ألفُ سنبلةٍ أثمرتْ في الرِّمالِ، خُطاهُ،
وألفُ سؤالٍ حزينٍ على شفةِ الجبلِ المتألمِ،
خَطَّتْ دماهُ.

وطني..
كَانَ
ما زالَ

يبقى سخيّاً بأمواته
وسخيّاً بأحزانه شجرُ البُنِّ،
يا وطني.. كنتَ أنتَ الشهيد،
وكنا صغاراً على راحتِكَ
نداعبُ وجهَ الترابِ
نقبِّلُ جدرانَكَ الهرماتِ،
وحينَ سمعنا نداءَ الجبالِ
تطيرُ بِهِ قطراتُ منَ الدَّمِ
جئنا
أفقنا
استجَبْنَا..
حملنا همومَ القرى
وحملنا عنِ الجرحِ أحزانهُ
ووقفنا نناديكَ:

يا طالعاً منَ نسيجِ شراييننا..
أنتَ علِّمتنا أنْ نكونَ
وعلِّمتَ أشجارنا أنْ تكونَ فكانتُ
وكانَ الشهيدُ
وكانَ المطرُ.

احتجاج العائد من رحلة الخوف

يا صدرَ أمِّي
ليتني حَجَرْتُ على أبوابِ قريتنا
وليتَ الشعرَ في الوديانِ ماءً
أو شجرُ،
ليتَ السنينَ الغارباتِ،
حكايةً مرسومةً
في نَهْرٍ راعيةٍ عجوزُ،
ليتَ السَّمَاءَ قصيدةً زرقاءُ
تحمِلُنِي إلى المجهولِ،
تغسلُنِي مِنَ الماءِ / الترابِ
ليتَ القلوبَ ترى،
وتسمعُ،

والعيونَ نوافذُ مسدودةً،

من لي بعينٍ لا ترى؟
من لي بقلبٍ لا يكفُّ عن النظر.

* * *

وسطَ الظلامِ وجدتُ إيماني
وفي قلبِ النهارِ فقدتُ إيماني..
لماذا يا كتابَ الشمسِ تقرأني
وأعجزُ أنْ أراك؟!

أرى حروفَ دمي،
بُقْعاً منَ المرجانِ
ضوءاً في فمي..
مُرَّ هوَ اللَّيْلُ الطويلُ،
الشعرُ مرَّ،
وصوتُ (فيروزٍ) بلا طَعْمٍ
وبينَ النومِ والعينينِ
بحرٌ من رمالٍ.

* * *

رِفْقاً بأهدابي
ورِفْقاً يا أظافرهم بأعناقِ القصائدِ
أينَ أخفيها؟
أأحملُها معي
لِلضِيقِ الأخرى
مَنْ النهرِ الذي لا ماءَ فيه؟!
لا.. لستُ مجنوناً،
وأحلامي تطاردُ حشدهم
وأمدُّ أظفاري،
أعَضُّ بنارِها وجهَ الظلامِ
أموْتُ مِنْ خوفي،
ومِنْ غضبي،
ومِنْ قهري أَمُوتُ...
أموْتُ مِنْ البكاءِ.

* * *

لا تكذبي
يا صافناتِ الشَّكِّ،
موجودٌ أنا..

جسدي وروحي تغرقانِ

وصوتُ أحزاني ذئابُ

تنهشُ الكلماتِ.

ليتَ الشَّكُّ ينشرُ لَيْلَهُ حولي

ويطويني العَدَمَ

ليتَ النهارَ يغيبُ، لا يأتي

وليتَ اللَّيْلَ لا يأتي،

وليتَ الأرضَ نجمٌ لا يدورُ.

قراءة أولى في كتاب التحدي

وقوفاً - يقولُ الترابُ -

وقوفاً - تقولُ الحجارَةُ -

طعمُ الحياةِ لذيذٌ

كطعمِ المماتِ

دفاعاً عنِ الأرضِ،

عنِ نخلةٍ في السُّجُونِ

تقدّمُ خاتمَ خطبتها..

للّذي إنْ دعتُهُ الزّنازُنُ

لم يتردّدْ

وإنْ عانقَتْهُ المشانقُ

لم يتردّدْ..

(شهيدُ الهوى)

للّذي لا يساومُ
في لَحْمِ أطرافِها
للّذي لا يخونُ دماءَ الترابِ.

* * *

أيُّها المستحْمُونَ بالوَحْلِ
صوتُ الهوى في دمِ العاشقينِ
كتابٌ من الحُلُمِ يفضحُكم،
العيونُ المليئةُ بالصمتِ خلفِ المشانقِ
تفضحُكم،
جسدُ العاشقِ المتأرجحِ في زحمةِ اللَّيلِ
يفضحُكم؟

أينَ..
أينَ تولُّونَ أديباركم؟!
ساعةُ الدَّمِ دَقَّتْ
وطفلٌ يسمُّونه العدلَ
طفلٌ يسمُّونه الغدَ ينمو،
على شجرِ الدَّمِ تمتدُّ أذرُعُهُ
وتصيرُ له عَضَلَاتٌ مِنَ الصَّخْرِ..

ها هو ذا قادمٌ
كلّما ارتفعتْ في الميادينِ مشنقةٌ
زادَ عُنفاً
وتخضّرُ أحلامُهُ في الرّنازنِ..

لا تفرحوا
إنَّ موتَ المناضلِ نصّرَ له،
إنَّ سجنَ المناضلِ وعدُّ بوصلِ المطرِ.

* * *

أيّها المتعجّلُ قتلي
لماذا يطارِدُنِي حقْدُكَ الهمجيُّ
ويرعبُنِي ظلُّكَ المتوحّشُ؟!
إنَّ سلاحي هو الحرفُ
والكلماتُ الحزينةُ،
في ساحةِ الحبِّ أعزفُ لحناً منَ الوردِ
أعزفُ لحناً منَ الشوقِ،
هل تتذكّرُ ما الحبُّ
يا قاتلَ الشّجراتِ العظيمةِ؟
للحبِّ أشرعةٌ

وطيورٌ منَ النورِ
أسراجها تتجولُ في ليلِ عينيكَ
تكتبُ منَ دَمِها في جدارِ العشيّاتِ:
(إنْ غابَ وجهي

وغَيَّبني حقدُكَ الهمَجِيّ،
فإنَّ الأغاني ستدبلُ
أما أنا فسأبقى

وتبقى دمائي تدقُّ نوافذَ كلِّ القلوبِ
تحاصرُ حقدَكَ عبرَ جميعِ الجهاتِ
وتمنعُ عنكَ التَّنُفُّسَ
والماءَ
والغَفَواتِ؛
وإنْ لم تَمُتْ فزِعاً
سوفَ تقتلُكَ الكلماتُ).

* * *

يخلعُ الدَّمُ صَكَ عُبُودِيَّتِي
ومراسيمَ خوفي،

وأنا المتدثر بالحزن يغسلني فرح خالد
كلما دقت الساعة الدّم،
أعلنت مبتهلاً رافع الكفّ:
أَنَّ صَلَاتِي لِلَّهِ
لِلشَّعْبِ،
للفقراءِ دمي..
كلُّ قطرة دمٍ تَرَقُّقُ مِنْ عَيْنِ أرملةٍ
تتحوّلُ مشنقةً وقبوراً،
تدقُّ بأحزانها ساعة الدّم..
فانتظري أيّنا الزَّيْدُ الطَّفْحُ
ولتعلمي أيّنا سوف يطرده الله
مَنْ عطفه،
وإذا ماتَ مَنْ ستلاحقه لعنة الدّم،
مَنْ سوف ينمو على قبره
شجرُ اللَّعناتِ؟!!

المساومة..

إلى (أ. ع.)

- ١ -

(ابنُ هندٍ)

يساومُني أنْ أبيعَ لساني

وصوتَ غدي،

وجماجمَ جندِ (الحسينِ).

ضَعِ السَّيْفَ حَيْثُ تَرِيدُ..

هنا في فمي

هنا في دمي،

أبغضُ الموتَ لكنني أتعشَّقهُ

حينَ يغدو الخلاصَ

لجمجمتي من رمادِ الخيانة.

- ٢ -

قال لي

ورمادُ الخيانة يحجبُ عينيه
والليلُ يسقطُ من شفتيه:
الموائدُ في الشّام متخمةٌ
وبساطُ (عليّ) من البلحِ الجافِ..
أيّ الطّريقين تسلكُ يا صاحبي؟
قلتُ: حيثُ يكونُ (عليّ) أكونُ،
يظللّني سيفُهُ
وأصلي وراءَ سحابتِهِ،
حينَ أظمأُ.. صوتُ العدالةِ مائي
وإنّ جعتُ.. فالوجبةُ التّمرّةُ اليابسةُ.

- ٣ -

قال منتفخاً:

إنّ رأسك تشكو

مَنْ الجسدِ المرتخي تحتها،
وأرى الجسدَ المشتكي
يتمطَّى مِنَ الأَيْنِ؛
يرفضُ أَنْ تتسلَّقهُ صخرةٌ
لا تحبُّ الشَّهِيَّ على نهرٍ مائدي،
وهي واحدةٌ مِنْ رؤوسٍ تدلَّتْ
وَحَانَ أَوَانُ قِطَافِي لها،
كَمْ مِنَ العَمْرِ عاشَتْ على جذعِها!
قلتُ مبتسماً:
ليسَ بِالزَّمنِ / الخبزِ
بِالزَّمنِ / الأرضِ،
تحيا الرؤوسُ الجديدةُ في عَصْرِنَا،
ليسَ عُمرُ (الحسينِ)
المسافةَ بَيْنَ المدينةِ والموتِ..
عُمرُ (الحسينِ) جميعُ الزَّمنِ.

- ٤ -

سقطَ الضوءُ في أضلعِ الأرضِ،

في صَدْرِهَا يَرَقْدُ الْآنَ،
أَحْرَفُ أَشْعَارِهِ تَتَدَلَّى بِرَوْقاً
قَنَابِلَ،
تَنْجُبُ مَوْتاً،
وَتَغْتَالُ لَيْلَ (يَزِيدَ) وَأَنْصَارِهِ
وَجُنُودَ الْمَسَاوِمَةِ (الزُّزْقَ)،
هَآ هِيَ ذِي الْآنَ تَمْطُرُ رُؤْيَا،
وَتَحْتَلُّ ذَاكِرَةَ الشَّمْسِ
تَرْحَلُ عَبْرَ الزَّمَانِ إِلَى كُلِّ جِيلٍ.

(ذو نواس).. البحر والاغتيال

أحملُ (صنعاء) على كَتْفِي وأصيحُ
أحملُ (عَيَّانَ) على كَتْفِي وأصيحُ:
مَنْ يحجبُ فاتحةَ الشمسِ عن الأشجارِ
ويلطِّخُ وجهَ النهرِ بِرُوثِ العازِ؟!

(ذو نواس) اشترى الموتَ..

حينَ رأى في الجوادِ المهاجرِ
ظلَّ استغاثةٍ عينيهِ

باعَ الهوى واشترى نفسه..

ثابتٌ والجوَّادُ على مدخلِ البحرِ

خيْطُ مَنْ الدَّمِ

مَنْ حوله الشمسُ تَبْرُقُ..

يا طفلةَ البُنِّ

يا امرأةً تكلتْ ورَدَها

ناوليني يديكِ أَقبِلْ جُرْحَهُما

ثمَّ أقرأ فوقَهُما طالعي..

كانَ يحملُ بينَ يديه جذورَ الورودِ،

وينثرُها في الطريقِ

يبللُها بدموعِ الشَّرايينِ

يجلسُ بينَ عصافيرِها حالمًا،

كانَ بينَ الجوادِ وظلِّ المقابرِ

شوطٌ مَنْ المدِّ،

كانَ الجدارُ بعيداً

وكانَ المغني يداعِبُ قيثارةَ الرِّيحِ

يستعجلُ الشمسَ

يستعجلُ النارَ،

يعلنُ للطيرِ
للوحشِ
للجُزْرِ النائِماتِ،
مواعيدَ خَلُوتِنا.

(ذو نواس) ارتدى حُبنا
وطيَّالِسَ أشعارنا،
سارَ تسكُّنُهُ موجةُ
منَ بروقِ الفَرَحِ.

أحملُ (صنعاءَ) على كَتِفي وأصيحُ
أحملُ (عَيَّانَ) على كَتِفي وأصيحُ:
منَ يحجبُ فاتحةَ الشمسِ عن الأشجارِ
ويلطِّحُ وجهَ النهرِ بِرُوثِ العارِ؟!

أوصدَ البحرُ أبوابَهُ غيرَ بابٍ
يؤدِّي إلى القبرِ،
كلُّ مواعيدِنا احترَقَتْ.
خرجَ الفارسُ المتلفُّعُ بالفجرِ

يبحثُ عنْ ثغرةٍ في الجدارِ..
(تعالَ هنا..) قَالَ وجهُ الظلامِ،
(تعالَ هنا..) قَالَ وجهُ الرِّياتِ
كلُّ المواعيدِ
مُشَبَّهٌ في كتابِ الهوى.

طفلةُ البُنِّ تنتظرُ المتلفَّعَ بالفَجْرِ
عندَ جبالِ الشروقِ
تعدُّ طعامَ الفِطارِ..
(لماذا تأخَّرَ موعدهُ؟)،
الحجارةُ في وجهِ صنعاءَ
أسئلةٌ تتدفَّقُ في غَسَقِ اللَّيلِ
خيْطٌ منَ الدَّمِ يلمعُ،
يعدو الجواذُ وحيداً وفي عينهِ
دمعةٌ تتألَّقُ..

أينَ الفتى؟!
كانَ يسقي جذورَ الورودِ؛

المدائنُ حُبلى
ونهرُ الطفولةِ يجري..

ولكنَّ شيئاً بظهرِ المدينةِ يزحفُ

يزحفُ

يشربُ ضوءَ قناديلِها،

تصمتُ الطُّرقاتُ

الوجوهُ الرَّماديَّةُ اللَّونِ،

آخِرُ نجمٍ هوى؛

أتراهُ السُّكونُ الذي يسبقُ

العاصفةُ؟!!

أحملُ (صنعاءَ) على كَتِفي وأصيحُ

أحملُ (عَيَّانَ) على كَتِفي وأصيحُ:

منْ يحجبُ فاتحةَ الشمسِ عنِ الأشجارِ

ويلطِّخُ وجهَ النهرِ برُوثِ العازِ؟!!

للطَّرِيقِ المؤدِّي إلى البحرِ بَوَّابَتانِ

للطَّرِيقِ المؤدِّي إلى الفَجْرِ بَوَّابَتانِ..

(ذو نواسَ) اختفى بينَ بَوَّابَةِ البحرِ

والفَجْرِ،

كيفَ اختفى؟!!

الحجارة في وجه صنعاء أسئلة
ودموع،
وكلُّ الشُّمُوسِ البعيدة تأخذ شكل الرَّمال..
لماذا تنُّ الخطى
ويضيقُ المدى.
وَحَدَّكَ الْآنَ..
هل جاءكَ الموتُ من حيثُ تدري؟
وهل أنكرتكَ الوجوه الأليفةُ
في لحظة الاغتيال؟!

الورودُ ثقبٌ على جسدِ الأرضِ
لا ماءً في البحرِ
أمواجهُ تتهاوى،
الورودُ ثقبٌ على جسدِ الأفقِ،
ما بلَّغوا بعدُ بالنِّبأ المرَّ طفلتَهُ؛
طفلةُ البُرِّ في مطبخِ السَّهَرِ - الحُلُمِ
لَمَّا تزلُ تغمسُ الخبزَ
في العَسَلِ / الدَّمِ..
يَنْزِفُ مِنْ وَجْهِهِ (عَيَّانَ)،

يكتبُ بالمطرِ المتساقطِ لحنَ الجنّازِ،
يُعَبِّئُ بالنارِ أبناءَهُ
يتمدّدُ في الفعلِ
شاحبةً في المتاريسِ ريحُ الجبالِ.

أحملُ (صنعاءَ) على كَتِفي وأصيحُ
أحملُ (عَيَّانَ) على كَتِفي وأصيحُ:
منْ يحجبُ فاتحةَ الشمسِ عن الأشجارِ
ويلطّخُ وجهَ النهرِ بِرُوثِ العازِ؟!

طفلةُ البُنِّ
إنَّ الذي كانَ وعداً مضى
والذي كانَ حُلماً مضى..
أطلقني للدموعِ العنانَ
اخْرِجِي مِنْ عَيونِ النُّعاسِ
ادْخُلِي فِي جذورِ الورودِ
اسْكُنِي زَمَنَ المدِّ
قافلةُ البحرِ والنارِ لا تنتهي.
(ذو نواس)

سيولدُ ثانيةً منْ عيونِ البحارِ
سيطلعُ منْ غضبةِ الموجِ
يطلعُ.. هذي علاماتهُ في المنافي
السُّجُونِ
المشانقِ..
هذي بشائرهُ في القصائدِ،
في الكلماتِ التي يطلقُ الطفلُ
في شجرِ الدمعِ
في رغبةِ الخَلْقِ
في لَعَلاتِ الرِّصاصِ،
اخْرِجِي.. يسكنُ الجُرْحُ وجهكِ
لا العارُ
يسكنُكِ الجوعُ لا الرِّقُّ..
شاخَ دُمُ المخبرينَ
تناثرَ حُلُمُ الغزاةِ.
اسألوها،
فإنَّ مزارعها البِكرَ واعدةٌ
وشوارعها البِكرَ بالجمِ
راكضةٌ.

في الصواعق لا تعرفُ الخوفَ
في موعِدِ الرَّعْدِ لا تعرفُ المستحيلَ.

الكلمة.. وضمفادع الموسم

١- المدخل:

قبل أنْ تبدأي بالبكاءِ
وتكتبِ عيناكِ بالدمعِ مرثيتي
ويقولُ الرفاقُ: استراح..
تعالِ نودِّعُ أوجاعنا
نرتدي ثوبَ أحزاننا،
نلبسُ الشَّجْنَ المرَّ
نخرجُ منْ جلدِ أيّامنا
وانكساراتنا
منْ عيونِ الأحاديثِ..
إنَّ الإقامةَ في وطنٍ للضمفادعِ
قاسيةٌ،

والرَّحِيلَ المَبَاغَتَ قَاسٍ،
وليسَ سوى الموتِ يَخْلَعُنَا
ثمَّ يرجعُنَا لضميرِ الترابِ.

٢- الحرف:

"أكلوني البراغيثُ"..
في موسمِ الحزنِ
كانتُ عيونُ الضَّفَادِعِ محشوّّةً بالدَّنانيرِ
محشوّّةً بالريّالاتِ،
بالعارِ - تحتَ الموائدِ -
تكتبُ أحشاءها،
تمتطي للرَّغيفِ حماراً هو الحرفُ،
تصنعُ منْ كَفَنِ الكلماتِ سريراً
وتنهشُ وجهَ الوطنِ.

٣- مكابدة:

مسختني دمائهم،
أوثقوني إلى صخرةٍ تتحسّسُ وجهي أصابعُها
فانكسرتُ،

تَوَكَّأْتُ حَزَنِي

فَأَسْلَمَنِي لِلدُّوَارِ

وَلِلْخَوْفِ لَا يَنْتَهِي

حَاصِرَتْنِي الذَّنَابُ الدَّخِيلَةُ..

أَيْنَ الْمَقَرِّ؟

الْجِبَالُ تَقُولُ،

الْمَتَارِيسُ

كُلُّ الْبُيُوتِ

الشَّوَارِعُ، مُحْتَلَّةٌ بِالدَّمَامَةِ:

- عَيَّانُ..

يَا سَيِّدَ التَّائِرِينَ أَغْنِنِي،

أَغْنِنِي بِمَدْفَأَةٍ؛

إِنَّ بَرْدَ الدَّمَامَةِ يَرْقُدُ فَوْقَ جَبِينِ

الضُّحَى،

وَأَرَى الرَّاكِبِينَ جِيَادَ الْخِيَانَةِ

يَمْتَشِقُونَ الْحُرُوفَ،

يَعْدُّونَ لِحْدًا لَصُوتِ النَّهَارِ

وَيَنْدَلِقُونَ عَلَى الْأَرْجْلِ النَّاعِمَةِ.

٤ - سؤال:

كلُّهم يتدنَّسُ حتى النُّخاعِ
ويركعُ حتى النُّخاعِ
ويكذبُ حتى النُّخاعِ،
ويعرضُ في السوقِ أقلامه
وضفادعُه،

ويتاجرُ بالكلماتِ
وبالرَّبِّ
والناسِ،
لكنَّه لا يرى الوَحْلَ في وجهه ناطقاً
والنَّخاسةَ ملءَ شرايينه،
والدَّنانيرَ في شفتيه!
ولا يسألُ الصُّحُفَ المشتريةَ
لماذا يطاردُ أصواتهم شعبنا؟
يتقيُّ أحرفهم
يبصقُ الكلماتِ الرديئةَ

والمشتريةَ

ويهربُ من (مومساتِ) الكتابة؟!!

٥- الكابوس الأول:

سقطَ اللَّيْلُ فِي ثَوْبِهِ الْعَرِيَّ
الحروفُ ابنةُ القَحْطِ والدَّمِ
يسكنُها الحزنُ.
سيِّدَةُ الوقتِ نحوَ التَّوَابِيثِ
ترحلُ داميةً،
بينَ ميلادِها والرَّحِيلِ تَوَابِيثُ
تنسابُ فوقَ نتوءِ الجراحِ فمًا،
وتمدُّ إلى الماءِ
خيطاً منَ الحُلُمِ المستقرِّ على الرَّمْلِ..
يا لِلنَّهَارِ الذي سوفَ يرحلُ،
يا لِلظَّلامِ الذي سيجيءُ!

٦- الكابوس الثاني:

كنتُ بينَ الحضورِ
وبينَ الغيابِ
أحاورُ سيفَ بنِ (ذِي يَزَنٍ)..
وبماءِ المحبَّةِ أغسلُ جبهتهُ
منْ غبارِ الزَّمانِ،

وأخلع كلَّ الملوك
بكلِّ الصَّعاليك،
بالكلمات - الحروف أتابع فتح الشُّعور،
وفي لحظة هبطَ الليلُ..
ماذا رأيتُ؟
رأيتُ الحروفَ - احتجاجاً -
تغادرُ أشجارها،
ورأيتُ العصفيرَ
تركضُ في طَفْسِها الدَّمَوِيِّ
وتنثرُ أحزانَ جُرْحِي
على طبقٍ من ضميرِ الذين (استراحَتْ)
ضمائرهم،
تتقدَّمُ رأسي
وتدخلُ مذعورةً في عجينِ الدِّماءِ.

٧- مطاردة:

كلَّما طالَ ظلُّ القصيدة
طالت حِرَابُ الخصوم..
الضَّفادعُ تُدلي بأصواتها

تحدّثُ عن شاهدٍ لم يكن شاهداً،
عن فراغٍ إذا مسّ أطرافَ أكتافِها
حرّكتْ ذيلَها،

فقدتْ لونَ أظفارِها،
دخلتْ لغةَ الوحلِ
أتقنتْ المفرداتِ الدّميمةَ
صارَتْ تَنقُ
تَنقُ؛
تلوّثْ جدرانَ أشعارنا بالنقيقِ.

٨ - الخلاصة:

أيّها الشعرُ.. لا تتراجعْ
تقدّمْ،
ولا ترتجفْ في الليالي أصابعك
البيضُ،
ثبّتْ على الموقعِ المتقدّمِ صوتك..
هشّ هو الليلُ
حُرّاسُهُ لَنْ ينالوكَ،

نعلك أطول من كل قاماتهم
جبر صوتك من ذهب الشمس
لا ينطفي
جبر أقلامهم من نبذ الخيانة
من فضلات المواخير..
لا نتراجع؛
إن الوسيط الذي في (...) يعرفهم.. واحداً
واحداً،
يتمري،
ويخلق (...) كل يوم جبر تقاريرهم
فمتى يخرسون؟
متى تخرس الألسن / الأحذية؟!

٩- الخروج:

اقترب..
الدم الداهل اللون
في جسدي يتذكر،
يقرب الآن من صرخة الهول

يقتربُ الآنَ مِنْ كَفَنِ الحَرْفِ؛

ألمسُ بالكلماتِ التَّوايِتَ

والنَّعَشَ،

أقرأُ أنَّ رمالَ الجزيرةِ بحرٌ مِنَ الموتِ،

لا يرتوي،

أيُّ بحرٍ مِنَ الموتِ

هذا الذي يرتوي مِنْ دمي،

يرتوي مِنْ حروفِ القصائدِ؟

والكلماتُ / القوافلُ ما تَعِبَتْ

تتعبُ الرِّيحُ والانتظارُ،

وما تعبَتْ في الرِّمالِ الحروفُ / القوافلُ.

كلُّ الشُّمُوسِ مُحاسِبِيَّةٌ،

والطريقُ رصاصٌ،

ولكنَّ ظلَّ القوافلِ

لا يستريحُ

ولا يتأخَّرُ عَنْ موعدِ الاجتياحِ.

على قبر دمشق

- ١ -

دمشقُ التي قاتَلْتُ
ودمشقُ التي احترَقْتُ
ثمَّ عادتْ من النارِ، لم تحترقِ..
كيفَ تحترقُ الآنَ في السَّلمِ،
تفقدُ لونَ ضفائرها؟!
كيفَ يهجُرُها (برَدَى)،
وينامُ على قبرِها (قاسيُون)؟!

- ٢ -

أيُّها القمرُ الدَّهْيِيُّ - الذي كانَ -
كيفَ ترى طفلةَ الشَّامِ..

يجلدها العابثون
فلا تتحرّك أشجارك الشّاحات
ولا حَجَرٌ مِنْ (أُمِّيَّة)؟
يا سيّد الأفقِ رُدّ..
ألا تستطيع؟
هلِ اسْتَعْجَمْتَ في زمانِ الحروبِ الحروف؟!

- ٣ -

أيّها المتعبون
الطّريقُ طويلٌ..
وأعناقنا لا تهابُ المسيرَ،
الخيولُ التي نمتطيها.. دماءُ قرانا
وأحزانُ أجدادنا
فاستريحوا
لأنّ الخيولَ الجريحةَ ظامئةٌ للمسيرِ.

سبتمبر ١٩٧٧م

أشجان يمانية

- ١ -

هل عرفتُ أعينُكم في الأرصفة المهجورة

معنى الدَّمْع؟

في المنفى احترقتُ عيني شَجْنَا،

صارَ الدمعُ بعيني وطننا

شربتُ عيني ماءَ الحزنِ

انفجرتُ..

أينَ الضوء؟

شَبَحُ امرأةٍ ظلَّ ينادي وجهي

منْ خلفِ اللَّيلِ

حينَ خلعتُ ثيابَ المنفى
غابَ القمرُ المشتاقُ
ضاعَ كتابُ العشاقِ..

مهلاً يا قدميِّ الذّاويتينِ
الذّربُ أفاعٍ
والرّحلةُ زيفٌ.

التّذكرةُ الأولى ثعبانُ
والتّذكرةُ الأخرى تمساحُ
فلتقرأ أقدامُ النّهرِ تذاكرها،
ولنتوقّفْ

حتى يتفجّر ماءُ الفجرِ من الصخرةِ
ومن الجَمعِ الحاشدِ يولدُ إنسانٌ.

- ٢ -

يتملّكني حزنُ كلِّ اليمانيّ
يفضّخني دمُعهم،
جرّحهم كلماتي
وصوتي استغاثتهم،

يتسوّل في الطُّرقاتِ الصَّدَى
كلّما قلتُ: إنّ هواهم سيقْتلني
ركضتُ نخلةً الجوعِ في ليلٍ منفاي،
فانتفضَ العمرُ،
وارتعشتُ في الضُّلوعِ دفوفُ الحنينِ
وبينَ عيونِ نخيلٍ (الجنوبِ)
وكَرْمٍ (الشَّمالِ)،
يقومُ كتابُ الهوى
تتدلّى عناقيدُ بهجتنا
يغضبُ الرَّمْلُ
ترتعشُ الكلماتُ
تحاصرُها شهوةُ الحقدِ
تمتدُّ حولي أصابعُها..
أيُّ قُضبانٍ سِجْنٍ هنا تَرْتَسِمُ؟

- ٣ -

أَمْشِي وراءَ صَوْتِهِ
يَمْشِي وراءَ صَوْتِي،

حيناً أصيرُ ظِلَّهُ
حيناً يصيرُ ظِلِّي،
مَنْ هُوَ هذا النَّائمُ اليقظانُ؟
- الخوفُ عُرسُ النارِ.
يخرجُ مَنْ رمادِ الأَمْسِ
ينسلُّ مَنْ رمالِ اليومِ
يرقصُ في جليدِ الغدِ.
- يا فَرَحَ الترابِ أينَ أنتُ؟
الخوفُ يرتدي دمي
يمضغني، أمضغهُ
نأكلُ بعضنا
نشربُ بعضنا.. متى سنفترقُ؟

- ٤ -

عَدَّبَتْنِي القَطَارَاتُ
وَهِيَ تصافحُ وجهي مودَّةً
عَدَّبَتْنِي الشَّوَارِعُ خاليةً
ليسَ في الكُوخِ إلَّا روائِحُهم.

أَيُّهَا الشَّجَنُ (المَارِيُّ) المَعْتَقُ

هذا حصاني

وَشِعْرِي

وَسَيِّفِي بِغْنِي بِهِمْ سَاعَةً

مَنْ لِقَاءِ الشَّجَرِ.

يا عيونَ الطُّفُولَةِ

وجهي هنا يستحمُّ بدمعِ الشَّجَنِ..

هل بعيدٌ عن النَّخْلِ وجهُ اليمَنِ؟

هل بعيدٌ أنا عن نخيلِ الهوى؟

هل بعيدٌ أنا عن زمانِ المطر؟

فخذوا لغتي

وكتابَ حياتي،

اهبطوا بي على صفحةِ الماءِ

نارُ الدُّمُوعِ تُذَوِّبُنِي

ودمي يتسوّلُ وجهَ الرِّياحِ.

- ٥ -

- إِنَّهُ موسمُ النومِ..

قالَ، وعيناهُ مفتوحتانِ

تفتّشُ في قَعْرِ إحداهُما
عن بقيّةِ إغفَاءٍ شاردةٍ:

- إنّهُ موسمُ الحزنِ.

قلتُ، وكانَ الصّدَى، مثلَ زنجيّةٍ
يتلَقَّتْ خلفي،
وكلُّ الممرّاتِ مغلقةٌ باردةٌ:

خنجرُ الأرقِ المتوهّجِ في صدره
يكتبُ الجُرحَ.

مالَ جبينُ النّهارِ
بَدَتْ آهةٌ في فمِ الشمسِ مكتوبةٌ،
- إنّهُ موسمُ الحزنِ،

صفراءُ في لونِ آهاتِنَا شجّراتُ الحقولِ،
المقابرُ،

والعشبُ أصفَرُ
أسودُ،

والملتقى.

- أيُّ فصلٍ منَ العامِ هذا الذي جاءَنا؟
- إنّهُ..

إنّهُ وجهُ كلِّ الفصولِ.

في العَتَمَةُ..

وطني وأنا نسهرُ

نشكو للريِّح..

نرسمُ وجهَ المنفى

نتساقى أَكوابَ الدَّمْعِ.

حينَ يغالبُني السُّكْرُ أرايَ وطني

وأراهُ أنا

مَنْ مِنَّا الوَطَنُ / المنفى؟

مَنْ مِنَّا الجُرْحُ؟!

يا نارَ الماءِ اقْتَرِبِي..

مُدِّي ظِلِّكَ فوقَ عظامي

فوقَ عظامِ الوطنِ / المنفى،

فوقَ الجذعِ المتفجِّرِ بالدَّمْعِ.

أسيرُ،

يسيرُ الطَّرِيقُ معي

ثُمَّ أَعْدُو وَيَسْبِقُنِي

قَدَمَايَ تَسْمَرَتَا..

هل أنا حَجَرٌ في خطوطِ البداية؟

مدينةُ عشقي تُنادي

ومنْ خلفِها تتدَلَّى العناقيدُ،

كالبحرِ غامضةً تتبسَّمُ (مأربُ)..

سيِّدتي ليسَ ذنبي،

تصالحُ - في قتلي - النفطُ

والرَّمْلُ

هل تسمعِينَ أنينَ حروفي

سَاتِيكِ يوماً.. سَاتِيكِ

يا للطَّرِيقِ.. أسيرُ عليه فيسبِقُنِي

ثُمَّ أَعْدُو فيسبِقُنِي،

هل أنا حَجَرٌ في خطوطِ البداية؟

- ٨ -

أُورَقَتِ الكَابَةُ.

تَحَذَّرْتُ فينا

تباركتُ أغصانها
تحدّدتُ في رأيي الأظافرُ الطريّةُ،
صيرتُ كحدّ الماءِ
لا الصمتُ يشفيني
ولا الكتابةُ
ولا حدائقُ الوردِ
ولا السّحابةُ.
أطرقُ بابَ اللَّيلِ خاشعاً:
يا ليلُ،
أيّها الرّحيمُ يا جدارُ..
غسلتني من مللِ النّهارِ،
غسلت نفسي من جحيمِها
من شوقِها العقيمِ،
غسلت عيني من الضّوءِ السّديمِ
وشفّتي من تحيرِ السّؤالِ.

- ٩ -

قال لي من رأى:
إنّ صنعاءَ جائعةٌ

والمآذن عاريةً تتسوّل،
(عَيَّانَ) يحملُ أطفاله
وتواييتَ موتاهُ،
ثمَّ يهاجرُ..

أينَ الطريقُ إلى الماءِ؟
عَذَّبَنِي عطشُ النهرِ
عَذَّبَنِي عطشُ البحرِ،
كلُّ مكانٍ على الأرضِ بيتٌ
سوى مَنْزلي،

كلُّهم يحملونَ دفاترهم
يحملونَ جماجمهم لِلْمَنَافِي.
رَحِمُ الأرضِ جَفَّ
الحصى، رَحِمُ الزَّمنِ المتفجِّرِ
جَفَّ،

خُطايَ تحدِّقُ في بعضها،
والطَّرِيقُ العباءة.

القاهرة، سبتمبر ١٩٧٧م

البحث عن عبلة في مدينة الرصاص والرّماد

يطالعني وجهه عبلةً محترقاً
في جليد بكاء الزُّنوج،
وفي حشرجات الطُّبول
يسافر قلبي من الماء
يخرج مرتدياً جلد أفريقيا..
شدّني النفطُ من نارِ غَيُوبتي
قال:

- قُمْ.. نِمْتُ
- نَمْ.. قُمْتُ،

سارَ بي الصوتُ للغربِ،
بينَ الصَّدَى والصَّدَى،
قَدَمَاهُ قصائدُنا العربيَّةُ،
كانتَ دماءُ الزُّنُوجِ دليلي على البحرِ،
في غايَةِ مَنْ نخيلِ الجماجمِ.
هذا المحيطُ مدينةُ أحزاننا
كم عَبَرْنَا إلى اللَّيْلِ في كَفِّهِ.
صوتُها يتمطَّى مِنَ القاعِ:
مehجورةٌ فأغثني.
ويصعدُ كالغيمِ،
يقطُرُ جمرُ الهوى..
رَسَمَ الجرحُ لونَ القصائدِ مِنْ رَنَدِهِ،
والرِّمَاحُ نواهلُ مَنْ جسدي
والسَّرَدَايْبُ
والنَّاطِحَاتُ تَمُجُّ الدِّماءُ:

يا امرأةَ النارِ..
يا نخلةَ أوجاعِ الغابةِ
أبناؤك قتلى في السَّاحاتِ

قوافلُ للأسرِ الخالدِ
يغتالونَ الموتَ / الخوفُ
يغتالُهُمُ الخوفُ / الموتُ
وغداةً اجتازوا خليجانَ الدِّمِ
بحثاً عنَ مركبةٍ للفرحِ القادمِ
غرقَ الموجُ
انشقَّ البحرُ عنِ القتلى..
كانتْ قِيَعَانُ البحرِ جماجمَ
والأعشابُ أنيناً أسودَ.
ها هيَ جُسُنُنَا المُوَوَّدَةُ
تنتفضُ الآنَ..
رَقْصاً،
موسيقى،
زَقَّةً.

لِعَبَلَةٍ فِي الْقَلْبِ

بحرٌ له شاطئانِ مِنَ الشوقِ..
تغسلُ في الشَّاطِئِ الأوَّلِ الخوفَ

تغسلُ في الشَّاطِئِ الْآخِرِ الحزنَ،

تمسحُ في مائه رحلةَ الدَّم

تكتبُ في مائه رحلةَ الحُلمِ،

تدخلُ في لونه وردةً

وتغادرهُ نجمةً

وتعودُ إليه لتبحثَ عن لونها..

فيقولُ لها الموجُ:

يا طفلي..

أينما شئتِ في الأحمرِ اغتسلي

أينما شئتِ في الأخضرِ اغتسلي

أينما شئتِ في الأزرقِ اغتسلي،

واحدري الأصفرَ المتهدمَ،

والأبيضَ المتورمَ،

والأسودَ المستديرَ:

وجهُ الوطنِ / الصَّخْرَاءُ

لا..

وجهُ الوطنِ / البحرُ

.....

يكونُ الوطنَ / الماءَ
الصوتَ / الماءَ
الحزنَ / الماءَ
وتكونينَ القلقَ / التَّكوينَ
النَّارَ،
الأغنيةَ / القُبلةَ،
ويكونُ الوطنُ / البُنَّ،
الحِناءَ،
السَّيفَ،
المحراثَ،
العُصنَ،
التَّافذة.. الموجهة.

أنا الموجُ،
صوتي جوازي،
وسيفي شهادةٌ قومي،
أبي جبلٌ من جبالِ الجزيرة،
أقدامُهُ في الخليجِ

وعيناه في اللاذِقِيَّة،
أُمِّي بأفريقيا غابةً للأرانبِ
طاحونةً للبكاء.
إلى أين؟..

صاحَ رجالُ الجوازاتِ.
قلتُ: أنا النَّارُ
والقهوةُ اليمينيةُ،
هذا الرَّمَادُ الذي حوَلَ وجهي من العَرَبِ،
والجُرْحُ..

لنْ تقفوا في طريقِ دمائي،
منَ المطرِ ابتدأتُ رحلتي
عَمَدَتْنِي الرِّيحُ،
سأدخلُ في الماءِ
في الصوتِ كيما أعانقَ شَمْسِي
وأقرأ في الجنةِ الضَّائِعَةَ:

صوتَ الغابةِ
رائحةَ الجسدِ الأفريقي
لغةَ النهرِ الشَّبِقِ الكَسْلانِ

هذي أمي
تتوَكُّ قَرْنَ اللَّيْلِ
وتحملُ عيناها كلَّ تجاعيدِ الأرضِ.
أطفالُ الحيِّ قبورٌ تتحرَّكُ في الجسدِ الميِّتِ
الفتيانُ عيونٌ مقفرةٌ وجدائلُ
الفتيانُ رصاصاتٌ تثقبُ وجهَ الحائطِ
مقهى الحيِّ المنبوذِ
صدرٌ ينزِفُ بالدمِّ / الجَمَرِ
يمضغُ أغنيةً حملتها الشُّطَّانُ عنِ البَحْرِ
البحرُ رواها عن غابِتنا العذراءِ
أغنيةً داكنةً كالقهوةِ
كالكاكولا
كالجسدِ الأفريقي

تعلَّقتُ بالريِّحِ
لم أضطربُ،
كانتِ النَّاطحاتُ
تحاذرنِي،

وتقلَّب - مذعورة -

نظراتِ التَّوجُّسِ،

تقرأُ جِلدي

ولونَ قميصي،

تضاريسَ وجهي،

تُقَضُّ مضاجعَ جدرانها..

سِرْتُ لم يختلجَ قدمي،

حينَ أدركني الخوفُ خافَ،

قرأتُ بعينه

في الشَّعْرِ الذَّهَبِيِّ،

تواريخَ جيلِ الأسي

تَعَبَ الكادحينَ،

يلوِّحُ لي نابهُ،

كادَ يشربُ ماءَ وريدي،

سمعتُ نَخيلَ الفراتِ

وماءَ الجنوبِ يحذِّرنِي،

وَيَشُدُّ على ساعدي..

(يا هلا...)، صاحَ ماءُ الزُّنُوجِ

فطالَعَنِي ضوءُ (عبلَة) في صوته:

أيّها النفطُ لو كنتَ مَمْلُوكِي
لم أبعُ للكهوفِ الرّماديّةِ اللّونِ
وجهي،
ولم تغتربُ في دمي وردةُ المستحيلِ:

جسدي زنزانةُ أفكاري
ضيّعني جلدي
قتلتني الرّغبةُ في قتلِ الألوانِ
يا صوتَ الأرضِ..
يا واحةَ أحلامِ الشمسِ
ورايةَ أحلامِ الفقراءِ
يا نافذةَ الشوقِ إلى (عَبَلَة)
صوتكِ قافلةُ سمراءِ الرّيحِ
وطوقُ نجاةٍ،
وجهكِ جسْرُ الآتينِ
إلى مدنِ الإنسانِ / الحبِّ
وَعُدُّ المندورينَ على الدَّرْبِ
مَوَالٍ في نهرِ التّاريخِ

فَانْشَقَّى عَنْ فَجْرِ يَأْكُلُ أَصْنَامَ اللَّيْلِ
يَزْرَعُ وَرْدَ الْحَبِّ / الْإِنْسَانُ
يُزَجِّعُ (عَبْلَةً)
وَيَعِيدُ الْأُلْفَةَ لِلْأُلْوَانِ.

محاولة للكتابة بدم الخوارج

(بعد الرضعة الأولى والأخيرة، احتضنَ الطفلُ، بشفتيه النَّارِيتَيْنِ الشَّدِيَّ
الجافَّ، وخرجَ من قميصِ أمِّه إلى الشارعِ).

● من رمادِ الخوارجِ يخرجُ طفلي
تُحدِّثني - وهو في المهدِ - عيناؤه:
- كنتُ أبي..

وَلَدَتْنِي مِنَ الرَّفْضِ نَفْسِي
مِنَ الطِّينِ وَالنَّارِ..
مِنَ مَوْسَمِ الْخَوْفِ جِئْتُ،

حَمَلْتُ حِجَارَةً وَجْهِي
وَسَافَرْتُ فِي الْحَرْفِ،
سَافَرْتُ فِي الصَّمْتِ

سافرتُ في الموتِ،
في القيدِ سافرتُ.

كَانَ الزَّمانُ ووجهي عَدُوَّينِ
كَانَ المكانُ ووجهي عَدُوَّينِ،
بينَ الزَّمانِ وظلِّي مسافةُ رفضٍ
وبينَ المكانِ وظلِّي مسافةُ رفضٍ،
وبينَ المسافةِ والرفضِ،
رفضُ.

(استيقظَ ابنُ الفجاءةِ في كتابِ الصَّحراءِ، وتسَلَّلَ منْ ترابِ "أقولُ لها
وقد طارتْ شُعاءاً"، ودخلَ تَوّاً في رأسِ المدينةِ، مُعَبَّأً بِريحِ الحِلْمِ ونارِ
الدَّهْشَةِ).

● طفليَ الخارجِيُّ يغادرُنِي
مَلَنِي،
مَلَّ رَقْصِي،
وإيقاعَ صوتي.

مضى مُثَقَلاً،
منْ بعيدٍ تحدَّثُني - عَبْرَ ماءِ الظَّهيرةِ -

عيناهُ..

عَنْ لَوْنِ أَشْوَاقِهِ تَتَحَدَّثُ

نَارُ الْمَسَافَةِ:

- هَا هُوَ ذَا يَرْقِصُ الْآنَ،

فِي دَمِهِ الْبَحْرُ

فِي لَحْمِهِ الْأَرْضُ،

فِي نَارِ أَقْدَامِهِ يَعْزِفُ النِّهْرُ أَشْجَانَ رَحْلَتِهِ

وَالشَّوْاطِئُ..

هَذَا الْجِبَالُ

الصَّحَارَى بِنَارِ الصَّدَى تَتَفَجَّرُ

تَرْمَحُ

تَخْضَرُ،

تَطْلُعُ مِنْ قَاعِهَا كَائِنَاتٌ مِنَ الْمَاءِ

نَهْرٌ مِنَ الْوَرْدِ

نَافُورَةٌ مِنْ مَطَارِقَ

بَوَابَةٌ مِنْ عَيُونِ الْخَيُولِ.

(يَتَوَحَّدُ النَّهْرُ بِالْوَرْدِ، اللَّوْنُ بِالرَّائِحَةِ؛ وَتَصِيرُ النَّافُورَةُ مَدْنًا، وَالْبَوَابَةُ

صَهِيلًا وَشَوَارِعًا).

● يكتبُ النهرُ أبناءَهُ

والشَّوارعُ تكتبُ أبناءَها،

منْ معاطفِها يخرجُ الأخضرُ / الماءُ

والأحمرُ / الجمرُ..

لا لم تكنْ قدمُ النهرِ مدعورةً

وهي تركضُ،

لا لم تكنْ كبْدُ الخيلِ مدعورةً

وهي ترقصُ،

تزفرُ بالعَرَقِ المتراكمِ

باللَّهَبِ المتراكمِ،

وجهُ البحارِ يغطِّي عيونَ المتاجرِ،

يطوي ثيابَ البيوتِ الأنيقة؛

لا يرتوي..

طفلي الخارجيُّ - تقولُ مياهُ النخيلِ -

يغادرُ أنسجتي

يرقصُ الآنَ في دَمِهِ

طالِعاً - كانَ - منْ قاعِ بُردِيَّةِ الصبرِ،

لا يرتوي..

يتكاثر،

في عَضَلَاتِ الشَّوَارِعِ يَبْكِي

يَغْيِي:

مَنْ الدَّمْعَةُ انْفَلَقَتْ كَلِمَاتِي

مَنْ الصَّمْتُ جَاءَتْ

مَنْ النَّخْلَةُ انْطَلَقَتْ فِي الْمِيَادِينِ شُعْلَةً.

(تسكنُ الرِّيحُ خُضْرَةَ النَّارِ، مَنْ عُرُوقَهَا يَطْلُعُ طِفْلٌ جَدِيدٌ، يَلْمَسُ
بِأَصَابِعِهِ الرَّمَالَ؛ فَيَشْتَعِلُ الْجَفَافُ مَطَرًا.. صَوْتُ حَمْدَانَ يَغْطِي وَجْهَ
الْأَحْسَاءِ، وَفِي أَكْفَانِ صَنْعَاءٍ يَمْتَطِي جَسَدَ عَلِيِّ بْنِ الْفَضْلِ).

● إِنَّهَا الْكَائِنَاتُ الْجَدِيدَةُ

وَالْمَاءُ خَلْفَ مَنَاقِيرِهَا - قَالَ حَمْدَانُ -

وَالرِّيحُ تَمَضُّعُ صَمْتِ عِبَادَتِهِ،

إِنَّهُ أَوَّلُ النَّهْرِ - قَالَ عَلِيٌّ -

وَهَذَا قَمِيصُ الْبَشَارَةِ أَعْرِفُهُ،

أَكَلْتُ قَدَمِي - قَالَتِ النَّخْلَةُ -

النَّارُ،

قَيَّدَنِي فِي السَّوَاهِلِ صَمْتُ الرِّيحِ،
أَرَى الْمَوْجَ..

أَشْتَاقُ لَوْ غَسَلْتَنِي ضِفَائِرُهُ،
كَلَّمَا اقْتَرَبْتُ قَدَمِي
كَلَّمَا عَانَقَ الْمَاءُ رَغْبَتَهَا،
لَقَّهَا ظَمَأُ النَّارِ

فِي مَعْطَفٍ مِنْ صَدِيدِ الْحَصَى
فِي رَمَادِ الزُّجَاجِ الْمَلَوَّنِ..

مَثْقُوبَةٌ خَطَوَاتِي،
الْمَوَائِدُ عَامِرَةٌ بَدَمِي
وَدَمِي يَتَسَوَّلُ بَيْنَ الْقُرَى.

(زَعَمَ الْوَائِقُ أَنَّ شَجَرَ الْعَشْقِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتَبَ بِالْوَرُودِ، عَلَى
جَسَدِ الصَّخْرَاءِ، وَأَنَّ الشَّمْسَ سَوْفَ تَطْوِي أَذْرَعَ الْبَارُودِ، إِذَا مَا لَوَّحَ
لَهَا اللَّيْلُ بِسَيَاطِ الدُّخَانِ).

● جَرَحُ حَمْدَانَ فِي جَسَدِ الْمَدَنِ

الْمُسْتَبَاحَةِ،

يَقْرَأُ فِي وَشْمٍ أَحْجَارَهَا رَقَمَ زَنْزَانَةِ الْوَحْدَانِ،

رقم زنازين أشجاره..

يافعاً - صار في نارها - شجرُ القدس،

في نارها يافعاً - لم يزل - شجرُ النّيل،

أشجارُ صنعاء يافعةٌ

والشّوارعُ.

لا..

صوتُ أحذية اللّيل

لا يمنعُ الشمسَ

والشجرُ اليافعُ الظلَّ

أنْ تتجوّلَ،

يخرجُ عاريةَ الصدرِ

يفتحُ للثلجِ والماءِ

تفتحُ للنهرِ والريّحِ

للموتِ محتبئاً في الرّصاصاتِ

نافذةَ الجسدِ العَضِّ..

ينشقُّ رَسْمٌ على صدرِ (حمدان):

لا تحترسُ أيّها الشجرُ الطفلُ،

ذاكرُ الدّمِ طالعةٌ من رمادي،

وفي وجهك الأخضرِ الطفلِ

ينهضُ وجهي،

بأحزانهِ تحتمي جذوتي

تتواصلُ أشجارُنا

تستفيضُ الشَّوارعُ،

تكبرُ أنهارُها

تتكاثُرُ،

تحتَ مطارقِها يتعبُ اللَّيلُ

في كسرِ جمجمتي،

يتجعَّدُ وجهُ الرِّصاصِ!

السَّفر في الجمجمة المتقوية

ماذا في جمجمتي؟

كلُّ أصابعٍ وَحْشِ اللَّيْلِ

الممتدُّ على صدرِ الأرضِ

تشيرُ إليها..

أرصفةُ اللَّيْلِ تشيرُ إليها

جدرانِ الليلِ تشيرُ إليها،

الموتى في أكفانِ الأحياءِ

يشيرونَ إليها،

القَصْرُ الدّافئُ والصَّخْرَاءُ،

لغةُ القحطِ وصوتُ الحقدِ

وكلُّ الأشياءِ المنقوعةِ في بئرِ الحقدِ
تشيرُ إلى جمجمتي..

هل أخفيها؟
هل أتركها نهباً لأصابعِ وَخَسِ اللَّيْلِ؟
جمجمتي تؤذيني
توجعُني
تجعلُ ليلي قَبْرًا
ونَهاري قَبْرًا..
هل من جمجمةٍ أخرى؟

جمجمتي تؤذيني..
يا زمنَ الأُحْزانِ المَرَّةِ
والأفكارِ المَرَّةِ،
وارِ الجمجمةَ المكشوفةَ
أَوْ دَعْ رملَ الأُحْزانِ المَرَّ يُواريني!

* * *

أُخْرِجْ مِنْ جِمْجِمَتِي سِيفاً أَحْمَرَ
صوتاً عَمَدَهُ الدَّمُ،

سنبلةً مثقلةً بالكلماتِ / الرَّعْدِ
الكلماتِ / الوَعْدِ،

أصيحُ،
أهزُّ الكُرَّةَ / الأرضَ بأحزاني
أشعلُها من نارِ حنيني..
مَنْ يطفئُها؟
مَنْ يطفئُني؟
لا البحرُ ولا ماءُ الشَّمْسِ
لا السُّحْبُ ولا أمطارُ الأنهارِ.

* * *

راجفةٌ لغتي
راعشةٌ أهدابُ الكلماتِ.
ما يُشَقِّقني
أنَّ الكلماتِ بلا سيفٍ
والأحرفَ من غيرِ أظافرٍ،
أنَّ الشمسَ - نهاراً - تسرقُ لونَ الشَّمْعَةِ
والشَّجَرَ الأخضرَ يسرقُ ثوبَ الأحشابِ.

أتوسَّلُ بالموتِ لكي أحيَا،

أتقدَّمُ

أتراجعُ،

أسألُ عنه المطرَ - الرِّيحَ

أراهُ أمامي..

كانَ الموتُ رفيقي

كانَ يسيرُ معي في وطني

ويرافقُنِي في الغربةُ،

ويجاذبُنِي أطرافَ الشوقِ

وأطرافَ الخوفِ،

يفتحُ في جمجمتي ثُقْباً للريحِ

ويفتحُ في صدري ثُقْباً للنارِ

ومقبرةً للأفكارِ السوداء.

* * *

يا وجهَ بلادي

في الحَبْرِ وفي الكلماتِ

في الدَّمِّ وفي الأصواتِ،

ألمحُ عينيكِ،

وأقرأُ صوتَ الجرحِ المفتوحِ..
الجرحُ المحتلُّ بداءِ الخوفِ
غادرَ خارطةَ الموتِ.

يا وجهَ بلادي
اخرُجْ منْ جسدِ اللَّيلِ
ارْكُضْ
ادْخُلْ في جسدِ الرِّيحِ
سافرْ في الجمجمةِ المثقوبةِ.

من تداعيات الليلة الأخيرة للمتنبّي في مصر

غادر الشاعر مصر في
٧ ديسمبر ١٩٧٧م،
بطريقة تتنافى مع
أخلاقيات مصر ولا
تتناسب مع الحب
الكبير الذي يكنّه
الشاعر لها ولأبنائها

- ١ -

الشعرُ شواطئُ شاحبة،
وشوشةٌ مصابيحٍ مطفأةٍ
تسلّقُ جدرانَ الكونِ،
مرافئُ يوقدُها سِرْدابُ الدّمِ،
أسرابُ طيورٍ صارخةٍ

في وطنٍ لا يمتلكُ الحبَّ،
ولا يلدُ الأمطارَ،
ولا يُصنغي للشمس!
لماذا يتمزّقُ في عنقِ اللَّيلِ
ويبكي دَمَهُ تحتَ رصاصِ الأوغادِ،
ويحفّرُ خارقةً للحبِّ
وأخرى للموتِ؟
لماذا يتدحرجُ في المدنِ الكبرى
بطناً جائعاً،
ويسافرُ تحتَ قناعِ الخوفِ
امرأةً حبلى بالإثم؟

- ٢ -

قادتني قَدَمَيَّ إلى النهرِ،
وجدتُ النهرَ يسيرَ
بعكسِ المجرى..
قلتُ لِعَرَّافَةِ وادي النّيلِ:
هذا زمنُ الأسماءِ المقلوبةِ

والأشياء المقلوبة..

زمنُ السَّلمِ / الحربِ

زمنُ الصَّلواتِ / الصَّفقاتِ.

سمعتني مرآة مالحة اللون،

وغادرتني ماءُ الأمنِ الذهبيِّ،

فأخفيتُ قصيدتنا في الحلمِ

وملأمتُ حروفَ المطرِ القادمِ في ذاكرتي،

وصحوتُ

على صوتِ (الكَلْبِ)

الخارجِ منْ أحذيةِ

يثقبُها (كافور) إذا جنَّ الليلُ،

ويرسلُها باسمِ السُّلطانِ

لكي تبحثَ عنْ صوتِ يتلقَّعُ بالحزنِ،

ويبحثَ في وجهِ الليلِ

عنِ القمرِ الغائبِ

عَبْرَ مساحاتٍ باهتةٍ

ومعلَّقةٍ فوقَ شظايا الأرضِ،

على مسمارٍ منْ كلماتِ الصُّحفِ

الصفراءِ.

في عيني أسلحةٌ

وشوارعٌ تُسرّعُ في السَّيرِ،

و(كافور) القُرْصَانُ الهابطُ

من مقبرة الخيل

يحدّقُ بحثاً عن وجهي في اللَّيلِ..

غمستُ يدي في ماءِ الصّدقِ،

وقلتُ: انتفضي يا كَبِدَ النعشِ،

اقتربي

اقتربي إني مصلوبٌ في خيطِ رحيلي..

كيفَ أعودُ إلى وطنٍ لا يملكُهُ أهْلُوهُ؟

عشرةَ أعوامٍ وأنا منقوعٌ في دمعِ الغربةِ

يشربُني الشوقُ

وتشربُني التّذكَاراتُ،

أتداوى بالشّعْرِ،

وأسكرُ بالأخبارِ!

- ٣ -

قالوا: مُتَّهَمٌ

ومُدانٌ بالعِشق

تعشقُ فاتنةً سمرَاءَ القلبِ،

(الدُّلتا) شَعْرُ ضفائِرها،

و(الهرمُ الأكبرُ) شامتُها،

والنَّيلُ شرايينُ القلبِ

وأوردةُ العينينِ..

وأنتَ غريبٌ والعشقُ حرامٌ

للغرباءِ وللفقراءِ وللطُّلابِ

للغرباءِ وللفقراءِ وللطُّلابِ.

قلتُ: التُّهْمَةُ تلبسُني

وأنا مندوّرٌ للعشقِ..

بهِ أحيَا

وأموْتُ،

أسافرُ في جَفَنِ المحبِوبِ

ويسكنُ في رثي.

قالوا: إن كنتَ تحبُّ الفاتنةَ السَّمراءَ..

لماذا شِعْرُكَ ينعْتُها بالأرنبَةِ المسلوِخةِ،

يذبحُها جلاّدانِ غريبانِ..

الأوّل من (تلّ أيب)،
والآخر من (ميت أبو الكوم)؟!
قلتُ: التُّهْمَةُ تلبسُ شِعْري أيضاً،
دَمٌ فاتنتي يصرُخُ في كلماتي،
ويغطّي حارطة الشَّعرِ / الدُّنيا.

- ٤ -

باعوني - قال النّيلُ -
وباعوا امرأةً أعشقُها منذُ طفولتنا،
باعوا رائحةَ الماءِ
وظلّ القُطنِ
وألوانَ الطّيْفِ
على مدخلِ بواباتِ الشرقِ القادمِ.
تركوني - منطفئاً - كالصمتِ
أحاورُ أعشابَ رماذٍ مبتلّ بالرُّعبِ،
وباعوا مئذنةَ (الملك الصّالح)
و(الفُسْطاط)..
غريبٌ وجهُ (الفُسْطاطِ)!

وضوءُ الشمسِ على مئذنةٍ

يرحل - قَسْرًا - نحوَ الغَرْبِ
القاتل.

- ٥ -

في اليومِ الخامسِ جاءَ (الكَلْبُ)
وراقبني،
كَانَ الذَّيْلُ جَهَازَ الإرسالِ
وكانَ السَّيِّجَارُ المنظَارُ.

في اليومِ السَّادسِ قبلَ صياحِ الذِّيكِ
انْعَقَدَتْ حَوْلَ المنزِلِ،
راياتٌ سُودٌ
وحشودٌ سُودٌ.

كَانَ صباحُ كاللَّيْلِ
وجهي يتخفَّى تحتَ حروفِ قصيدتنا
مذعوراً منْ أنيابِ
تبرقُّ خلفَ البابِ
تداعبُ بالشَّتَمِ حديدَ الجرسِ النَّائمِ
كالقلبِ الساكنِ لا نبضَ به..
أفراحي الجوعى لا نبضَ بهم،

حَشْدُ الْعَائِدِ يَتَقَدَّمُ
يَلْهَثُ
يَهْتَرُ،
وتطفو كلماتٌ عاريةٌ
كالنارِ تشقُّ كيانَ عيونِ
تتلقَّعُ بالدَّمْعِ.

ما عُذْتُ أرى
ما عُذْتُ أرى شيئاً،
غَطَّيْتُ أُسْرَابُ الرَّاياتِ السُّودِ
وأُسْرَابُ الْكَلِمَاتِ السُّودِ،
وغَطَّاني حَزْنٌ فِي حَجَمِ الْأَرْضِ،
وفي لَوْنِ جَدَائِلِ شَعْرِ الْمَحْبُوبَةِ.

- ٦ -

دنيا - قَالَ الشَّيْطَانُ -
وَضَعْنَاهَا
وَكْتَبْنَاهَا لِلْبَاشَا
والخاخام،
وحصرنا فيها الظُّلَمَ عَلَى الشُّعْرَاءِ،

والحزنَ على الكُتّابِ

الموتَ على الفقراءِ.

أشعلني الخوفُ منَ الشيطانِ،

وكانَ الألقُ الرّاعشُ في صدري

يخبو..

كيفَ اختبأَ الشيطانُ كثعبانٍ

في ثَدْيِ الشّامِ؟

كيفَ اختارَ جبينَ الشمسِ

مكاناً للتّفريحِ؟

كيفَ امتدّتْ يَدُهُ للنَّيلِ؟

وكيفَ اغتالتْ عيناهُ قميصَ (الأهرامِ)؟

أشهدُ أنّ البحرَ رمالٌ

والصّحراءُ دماءُ

أنّ الزمنَ المتوهّجَ

في لغةِ الموتِ يصيحُ:

ويلٌ للشيطانِ

وللباشا والحاخامِ،

يومَ تكونُ القارعةُ الكبرى،

وتقولُ القدسُ: صلاةُ جامعةٍ
ووضوءاً بالماءِ الأحمر!

- ٧ -

لنَجْ
ومريزُ طعمِ العمرِ بعيداً عنْ (صنعاء)،
لنَجْ
ومريزُ طعمِ العمرِ بعيداً عنْ (مِصر)..
قالَ دمي للأرضِ: وداعاً..
لم تسمعْ
لم يسمعْ صوتَ دمي (الْفُسْطَاطُ)،
مُداناً مثلي كانَ
ومرصوداً للقمعِ،
وكانَ النيلُ الأسمرُ
يتلَوَّى ألماً،
فَمُهُ المفتوحُ يوارِي جُثَّةَ فرحتِهِ،
ويمدُّ شراعَ الصرخةِ فوقَ الأمواجِ،
عرائسُهُ المخنوقاتُ
تصيرُ نخيلاً في الشُّطَّانِ،

تفرُّ إلى البحرِ نشيجاً مكسوراً
كالرُّمَحِ الضَّارِبِ
في الصَّخْرَاءِ الكُبرى..

صوتٌ يتصاعدُ من جرح النِّيلِ:
أنقِذني من زمنِ السِّلَمِ الرَّخْوِ
من زمنِ الحربِ الرَّخْوِ
من هذا العائدِ كالسَّمَكِ الميّتِ
تحرُّهُ جوقهُ خِصَيَانِ (الفتح)
وتتبعهُ كحميرٍ تنهقُ:
هذا زمنُ (البابِ المفتوحِ)
زمنُ السَّيْفِ / الذَّهَبِ
الوَرْدِ / السَّكِّينِ،
زمنُ فيه النَّاسُ سواسيةً في الموتِ..

وفي الجوعِ
وفي الإعدامِ.

في اليوم السابع نامت مصرُ
ونام النّيلُ،
ونام (الهرم الأكبر)
والصحراءُ،
ونام (أبو الهول)،
وصوت (السّد)
وقبرُ الفارسِ،
نامت كلُّ (نواطرها)..

لكنّ الشارعَ يستيقظُ
يخلعُ أكفانَ النومِ،
يغادرُ ساحتهُ
يخرجُ منْ أعماقِ الرؤيا
يتوسّعُ..
يدخلُ في الفعلِ،
ويشربُ ماءَ رصاصٍ منقوعِ
في أقبية الأمنِ المذبوحِ
وتخرجُ مصرُ منْ النومِ،

ويغسلُ ناسٌ عينيها منْ زمنِ اليأسِ
ويغسلُ ناسٌ عينيها منْ رملِ الحزنِ،
وتغدو في حضنِ النيلِ
رغيفاً ينضجُ بالشمسِ
وقلباً كالوردةٍ مسكوناً بعصافيرِ الحُبِّ.

- ٩ -

حينَ يعودُ النيلُ إلى النيلِ،
ويمدُّ على صدرِ (الدُّلتا)
كَفِّهِ العاشقتينِ،
ويخلعُ أكفانَ الموتى،
ويجيءُ ليسألَ عنْ عاشقِهِ السَّبَّيِّ،
قولي يا أشجارَ الحارةِ:
شَرَّدَهُ عنكَ اللَّيْلُ
وَعَصَفُ الْقَحْطِ،
اخْتَرَقَتْ عيناهُ على جمرِ المجرى
ومضى قبلَ مجيءِ الأمطارِ.

القاهرة ١٩٧٧/١٢/٧